



قسم اللغة العربية وآدابها

نوادير الرثاء في شعر كشاجم الرملي

مقدم إلى المؤتمر الدولي الأول لكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة قناة السويس

دكتور

جمال عبد الحميد زاهر

كلية الآداب جامعة قناة السويس

الرثاء فن شعري رائع ، يحمل في طياته كنوزاً نفيسة من الصفات والمثل والمناقب
الخلقية والخلقية . التي آثر الشاعر أن يرثي بها ، ووجد المرثي جديراً بها .
والفنا بالرثاء أن يتوجه به الشاعر إلى هالك عزيز من صديق أو قريب
، وقد فعل ذلك جُلُّ الشعراء، كما فعل ذلك كشاجم الذي يحوي ديوانه قصائد
ومقطعات في رثاء أبيه / ١٩٠ ، ٢٣٩ ، وأمه / ٢٠٧ ، وصديق له / ٣٠٢ -

٣٠٣ ، و غلام اسمه بشر / ٣٠٧ - ٣٠٩ ، و لمياء / ٦٠ ، ورثى آل رسول الله ﷺ
/ ٧٠ - ٧٣ ، ورثى عبد الملك بن محمد الهاشمي (٢٤٣ - ٢٤٥) الخ
لكنّ اللّافت للنظر أنّ كشاجم توجه بالرتاء إلى ما لا عهد لكثير من
الشعراء برثائه ، وعبر عن معان غير مألوفة حين توجه بالرتاء إلى عالم الحيوان
، وإلى بعض الجمادات ويهدف هذا البحث إلى أن يلقي الضوء على ما يعد نادراً في
مرآتي كشاجم

وقد ارتضيت لهذا البحث أن يتكون من :

تمهيد : يحوي نقطتين : (أ) مادة "ندر" في اللغة.

(ب) نبذة عن كشاجم .

موضوع : وبه استعراض لمرثيات كشاجم النادرة ، ما ينتمي منها إلى:

(أ) عالم الحيوان [رثاء طاووس - رثاء قمري]

(ب) الجمادات [عُود - مندبل - دستجة - سكين - قدح - الخ] .

خاتمة : تحوي أهم نتائج البحث

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه

الكريم وأن يجعله في ميزان حسناتنا

دكتور / جمال عبد الحميد زاهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة قناة السويس

مادة (ندر) في اللغة :

في جمهرة اللغة (٣٢١هـ) : " الندر : كل شيء زال عن مكانه فقد ندر يندر ندرأً

فهو نادر ، ... وبه سمى نوادر لأنه كلام ندر فظهر من بين الكلام " (١) ، وفي المخصص

(٤٥٨هـ) : ومنه نوادر الكلام لما شذ منه لظهوره " (٢) .

(١) الجمهرة ١/٣٣٩ .

(٢) المخصص ٣/١٤٦ .

وفي أساس البلاغة (٥٣٨ هـ) " ... وهكذا كلام نادر : غريب خارج عن المعتاد ، وأسمعي النوادر ، ولا يقع ذلك إلا في النُدرة ... " (١) .

وفي لسان العرب (٧١١ هـ) " ندر الشيء يندر ندوراً : سقط ، وقيل : سقط وشذَّ ، وقيل : سقط من خوف شيء أو من بين شيء ، أو سقط من خوف شيء أو من أشياء فظهر ، ونوادر الكلام تندُر وهي ما شذَّ وخرج من الجمهور وذلك لظهوره . وأندره غيره : أي أسقطه ، ويقال : أندر من الحساب كذا وكذا ، وضرب يده بالسيف فأندرها " (٢) .

وفي القاموس المحيط (٨١٧ هـ) " ... ونوادر الكلام ما شذَّ وخرج من الجمهور " (٣) ، وفي المعجم الوسيط " : ندر الشيء ندوراً : سقط ، يقال : هز الغصن فندرت منه الثمار وخرج من غيره وبرز ، يقال : ندر العظم عن موضعه وفلان في علم وفضل : تقدم وقل وجود نظيره ، ... ، أندر : أتى بنادر من قول أو فعل ... " (٤) ، وفي المعجم الوجيز : ".... ندر : قل ، النادر : القليل ، والنادر : الطريف ، ج نوادر " (٥) .

مما سبق يتضح أن مادة " ندر " في اللغة تدور حول الشذوذ والقلّة والطرافة ، والخروج عن المعتاد والمألوف ، وهذه هي المعاني التي يتبناها ويقصدها هذا البحث . وقد ألف الأقدمون كتباً في النوادر : كنوادر أبي زيد ، ونوادر ابن الأعرابي ، ونوادر أبي عمرو الشيباني ، وفي آخر الجمهرة أبواب معقودة للنوادر ، وفي الغريب المصنف لأبي عبيد باب لنوادر الأسماء ، وباب لنوادر الأفعال . وفي زهر الآداب (١٠٣٢/٤) كتب الحصري فصلاً تحت عنوان " من نوادر الرثاء " .

(١) أساس البلاغة / ٤٥١ .

(٢) لسان العرب / ١٩٩/٥ .

(٣) القاموس / ١٢/٢ .

(٤) ٧٤١/٢ .

(٥) ٦٠٨ .

نبذة عن كشاجم:

شاعرنا هو أبو الفتح^(١) محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك ، من أهل الرملة بفلسطين ، يعود أصله إلى الفرس^(٢) استقر أجداده بالعراق ، بينما كان أبا سفر متقلباً في البلاد ، حيث تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد ، وزار مصر غير مرة وأقام بها مدة واستطابها ، وله أشعار في " أهرامات الجيزة " و " وادي القصير " ولمّا رحل عنها .. هزّة الحنين إليها ، فعاد وهو نضو فراق ، تهزه إليها الأشواق ، قال :^(٣)

قد كان شوقي إلى مصر يورقني فالآن عدتُ وعادت مصر لي داراً

وأخيراً استقر به المقام بحلب حيث انتظم في سلك شعراء أبي الهيجاء عبد الله الحمداني والد سيف الدولة ثم ابنه من بعده ، كما كان طبّاح سيف الدولة أو طبيب طعامة^(٤) . أما عن لقبه فقد عُرف واشتهر " بكشاجم " وقيل إن هذا اللقب منحوت من عدة علوم كان يتقنها ، فالكاف للكتابة ، والشين للشعر ، والألف للإشياء ، والجيم للجدل ، والميم للمنطق^(٥) ، وقيل : لُقّب بذلك لأنه كان كاتباً شاعراً أديباً جميلاً مغنياً^(٦) ، وقيل : إنه لقب نفسه بهذا اللقب ، ولما سئل عن ذلك قال : " الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجم "^(٧) ، وتزعم المصادر أنه تعلم الطب في آخر حياته ، فزيد في لقبه (طاء) ، فقيل : طكشاجم ، إلا أنه لم يشتهر به.^(٨)

^(١) في حسن المحاضرة (١٨٧/١) ، ومعجم المطبوعات العربية (١٥٦١/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣٣٥/٣١) وتاريخ الإسلام للذهبي (١٩٤/٦) ، أبو نصر ، وانفرد صاحب شذرات الذهب (٣٧/٢) بأنه : أبو الحسين ، وفي ديوان الإسلام (٧٥/١) : أبو الحسن .

^(٢) كذا عند جل من ترجم له ، وانفرد يوسف سركيس (معجم المطبوعات العربية والمعربة (١٥٦١/٢) بأنه هندي الأصل .

^(٣) الديوان / ١٢٣ .

^(٤) الوافي بالوفيات (٤٢١/٦) .

^(٥) شذرات الذهب (٣٧/٢) ، الأعلام (١٦٨/٧) .

^(٦) الأعلام (١٦٨/٧) .

^(٧) شذرات الذهب (٣٨ /٢) .

^(٨) شذرات الذهب (٣٨ /٢) ، الأعلام (١٦٨ /٧) .

نص الشابشتي على أن لكشاجم " كتباً كثيرة وتأليفات طريفة " ، لكنه لم يذكرها ، بيد أن مترجميه ذكروا له : كتاب أدب النديم ، وكتاب الرسائل ، وكتاب المصائد والمطارد، وكتاب خصائص الطرب ، وكتاب الطبخ ، وله ديوان شعر جمعه " أبو بكر محمد بن عبد الله الحمدوني ورتبه على حروف المعجم ، " وكان السرى الرفاء مغري بنسخ ديوان كشاجم " (١) .

يحتل كشاجم مكانة بارزة على خريطة الشعر العربي بما قدّم لنا من رائع اللفظ ورائع المعنى ، وقد شهد له كل من ترجم له ، ففي الفهرست / ١٩٢ " أدبه وشعره مشهور ، وفي الديارات / ٢٦٠ ، " كاتب مليح الشعر ، رقيق الطبع ، حسن الوصف ، وفي مسائل الانتقاد / ١٤٦ : فأما كشاجم فحكيم شاعر ، وكاتب ماهر ، له في التشبيهات غرائب ، وفي التأليفات عجائب ، يجيد الوصف ويحققه ، ويسبك المعنى فيرققه ويروقه "

وفي وفيات الأعيان ٣٦٠/٢ ، واليتيمة ١٩٤/١ : إنه ربحان أهل الأدب ببلاد الشام ، والسرى في طريقه يذهب ، وعلى قلبه يضرب " ، وفي سير أعلام النبلاء ٣١/٣٣٥ " شاعر زمانه " ، وفي شذرات الذهب ٣٧/٣-٣٨ : " كشاجم أحد فحول الشعراء ، كان من الشعراء المجيدين والفضلاء المبرزين ، وكان يضرب بملحه المثل ، فيقال : ملّح كشاجم ، كان رئيساً في الكتابة ، ومقدماً في الفصاحة والخطابة ، له تحقيق يتميز به عن نظرائه ، وتدقيق يربى به على أكفائه ، وتحديق في علوم التعليم أضرم في شعلة ذكائه ، فهو الشاعر المفلق ، والنجم المتألق ،... ، شعره أنيق ، وأرجح مدوناته فتيق ..."

ووصفه صاحب ديوان الإسلام (٧٥/١) بـ " الأديب البارع والشاعر المجيد " ، وفي تاريخ الإسلام للذهبي ١٩٤/٦ : " كشاجم أحد فحول الشعراء في عصر المتنبي " ، وفي (جمع الجوامع ٥٠/١) . " وكان كامل آلات الظرف ، جامعاً لخلل الأدب واللفظ ، وله تأليف ملاح تدل على معرفته وتوسعه " ، وفي الأعلام للزركلي (١٦٧/٧) . " شاعر متفنن أديب"

وفي اليتيمة (٢/١) عده الثعالبي في جملة شعراء أطلق عليهم : " رياض الشعر وحدائق الظرف " ، وكان الخوارزمي دائم القول : " من روى حوليات زهير ،

(١) يتيمة الدهر ١٩٤/١ ، وفيات الأعيان ٣٦٠ / ٢ .

واعتذرات النابغة ، و أهاجي الحطيئة ، وهاشميات الكميت ، ونقائض جرير
والفرزدق ، وخمريات أبي نواس ، وزهديات أبي العتاهية ، ومراثي أبي تمام ،
ومدائح البحري ، وتشبيهات ابن المعتز ، وروضيات الصنوبري ، ولطائف كشاجم
،وقلائد المتنبي ، ولم يتخرج في الشعر ، فلا أشبَّ الله تعالى قرنه " (١) . وأتني
أحدهم على شعره بقوله : (٢)

يا من يُمنى بدمعٍ ساجمٍ يَهْمى على حُجْبِ الفؤادِ الواجمِ
لولا تَعَلُّهُ بكأسِ مُدامَةٍ ورسائلِ الصابي وشعرِ كشاجمِ

* * * * *

يمكن تقسيم مرثيات كشاجم النادرة إلى قسمين : قسم توجه بها الى رثاء
حيوان ، والقسم الآخر توجه به الى رثاء جماد ، وفيما يلي عرض لهذه المرثي .

أ) رثاء حيوان:

توجه كشاجم بإحدى قصائده إلى رثاء قُمري كان له ، والقمري نوع من
الحمام حسن الصوت ، " وإنما سمي القمري بهذه التسمية لبياضه ، و الأقر :
الأبيض ، وحكاية صوته تشبه ضحك الإنسان ، وهو شديد المودة والرحمة ، أما
مودته فإنه يُفرِّخ على فنن من أفنان شجرة عليها أعشاش لأبناء جنسه ، فيصاحبها
كل يوم ، وأما رحمته فإنه يُربي ولده ويعف عن أُنثاه ما دام ولده صغيراً ، ومن
عاداته أنه يعمل عشه في طرف فنن دائم الإهتزاز احترازاً على فراخه لئلا يسعى إليه
من الحيوان الماشي ما يقتله " (٣) .

(١) ثمار القلوب ٦٧/١ .

(٢) بيتيمة الدهر ٢٣٨/١ ، معجم الأدباء ٤٥/١ ، معاهد التنصيص ١٥٠/١ .

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ١٣٣/٣ .

والقصيدة المعنية قصيدة رائية تبلغ عشرة أبيات بدأها باتهام الزمان بالظلم والغدر ، والخيانة والجور ، إذ أصابه في عزيز عليه ، وثمين لديه من قبل أن يقضي منه وطره، لقد فجع شاعرنا بموت القمري ، إذ فقده ، وفقد بفقده أنيساً وسميراً^(١) :

غدر الزمان وجارَ في أحكامه والدهر عين الخائن الغدارِ
وُرزيتُ أعلقاً على كريمةٍ من قبل أن تقضى بها أوطارى
وفجعت بالقمري فجعة ثاكلٍ ففقدتُ منه أمتع السمارِ

ثم انتقل كشاحم الى وصف قمريه الذي كان يتمتع بلون كلون الغمام ، ومنقارٍ كأسنان الأعلام . وقد حباه الله بطوقين زهراوين^(٢) :

لون الغمامة لونه ومناسب في خلقه الأعلام بالمنقار

ومطوق من صنع خلقة ربه طوقين خلتهما من النوار

وما أكثر ما استغنى الشاعر بغناء قمريه ليلاً عن سماع الأنغام والأوتار ، وما أكثر ما شرب الخمر نهاراً على أنغام غنائه . وما أكثر ما أيقظه فجراً لأداء فروضه^(٣) :

ولطالما استغنيت في غسق الدجى بهديله من مطرب الأوتار
هزج الأصائل تستحث كئوسنا وتقيمنا للفرض بالأسحارِ

ولأجل هذا يبدي الشاعر حزناً دائماً وحسرة متصلة تكاد تكوي أحشائه وتحرق فؤاده ، إنه لم يعد يحتمل الصبر او يطيق السلوى ، و لم تعد الدموع بل الدماء تفارق عينه ، ولم لا وهو يبكي واحد الطيور، بل سيدها :^(٤)

(١) الديوان / ١٤٨ - ١٤٩ . الرزء: المصيبة ، الأعلق : جمع علق . كل متاع ثمين عزيز .

(٢) الديوان / ١٤٩ . النوار : الزهر .

(٣) الديوان / ١٤٩ . الاصائل جمع أصيل وهو آخر النهار قبل المغيب .

(٤) الديوان / ١٤٩ . الجوى : حرقه الفؤاد ، أودى: هلك ومات .

لهفأ على القمري لهفأ دائماً
ولقد هجرت الصبر بعد فراقه
ما كنت في الأطيّار واجد مثله
يكوي الحشى بجوى كلذع النار
ولقد مزجت دما بدمع جار
هيهاث أودي سيد الأطيّار

بؤسى الليالي عقيبة النعم
من ساورته الخطوب أقصده الـ
وكلما صحة إلى سقم
وللمنايا عين موكلة
وكلما غبطة إلى ندم
حتف ومن أغفلته لم يرم
وكلما جدة إلى هرم
بالحي لم تغتمض ولم تنم

ثم انتقل الشاعر للحديث عن طاووسه ذلك الذي يستحق أن تجري الدموع بل
الدماء عليه أنهاراً ، لقد كان يبدو بألوانه وتصاويره كحديقة متنقلة ، ويتمتع
بذيل ذي ريش كثيف ناعم منقوش مزركش ، وخلقة جميلة رائعة منحه الله
إياها ، إذا رفع رأسه ، ونصب قامته قلت ملكاً من الأكاسرة ، أما عيناه
فتشبهان لؤلؤتين لامعتين براقتين (١)

فأى عذر لمقلة بعد الطا
رؤية روضة تروق ولم
جتل الذنابي كأنّ سندسة
ووس عنها إن لم تفض بدم
أسمع بروض يسعى على قدم
سنت عليه موشية العلم

متوجا خلقة حباه بها
كأنه يزدجرد منتصباً
يطبق أجفانه ويحسر عن
ذو الفطر المعجزات والحكم
يبني فيعلي مآثر العجم
فصين يستصحيان في الظلم

ولكشاجم قصيدة ميمة تبلغ ستة عشر بيتاً في رثاء طاووس ، " والطاووس في الطير
كالفرس في الدواب عزاً وحسناً غير أن الناس لا يتبركون به ، ويكرهون كونه في

(١) الديوان ٢٩١-٢٩٢ . الجتل من الشجر والثياب والشعر : الكثيف الملتف ، وقيل : هو من الشعر ما
غلظ وقصر ، وقيل : ما كثف واسود ، الذنابي : الذنب .

دورهم ، وفي طبعه العفة وحب الزهو بنفسه والخيلاء والإعجاب بريشه ، وعقده
لذنبه كالطاق لا سيما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه " (١) .

بدأ كشاجم رثاءه للطاوس – على غير العادة – بإطلاق بعض الحكم . وإقرار عدة
حقائق مفادها أن الدهر لا يبقى أحداً على حاله ، وأن الأيام دول ، فالنعيم يعقبه شقاء .
والسعادة تليها بلاء ، وإذا تمكنت الهموم من أحد أنشب فيه الموت أظفاره ، ومن تجاوزته نجا
، وكل صحة الى سقم ، وكل جديد إلى بلى ، وسيف الموت مسلط على رقاب العباد ، متربص
بنا غير غافل عنا ، لا تدرك عينه سنة من نوم : (٢)

ويواصل كشاجم تصوير ما كان يتمتع به طاووسه من محاسن حيث منح ذيلاً
جميلاً ما أكثر ما اختال به كأنه عروس تخلب عين رائيها ، إلا أن ما يدعو للأسف
أن طاووسه أصبح من ساكني القبور بعد أن كان يزين صحون الدور . والله در الموت
الذي لا يفتأ يفنى كل عزيز نفيس (٣):

أدلّ بالحسن فاستدال له ذيلاً من الكبر غير محتشم
ثم مشى مشية العروس فمن مستظرف معجب ومبتسم
بعد صحون الديار عوض من فسيحها ضيق وهداة الرجم
وللردى همة يغول بها كل نفيس وكل ذي همم

أما لونه فقد كان يجمع بين الأزرق السماوي (لون اللازورد) والأخضر
والأحمر (لون العنم) (٤)

كأنما اللازورد نقطه ونقط اللازورد بالعنم
ولا يملك الشاعر في ختام مرثيته إلا أن يتذرع بالصبر على بلواه ، فهو عصمة لمن
اعتصم به (٥) .

ما أحسن الصبر في البلاء وما أجمله عصمة لمعتصم

(١) مباهج الفكر ومناهج العبر ١/٩٤ .

(٢) الديوان / ٢٩١ . ساورته : صارعته .

(٣) الديوان / ٢٩٢ . الرجم : حجارة القبر ، يغول : يهلك ويقتل .

(٤) الديوان ٢٩١-٢٩٢ . الجنل من الشجر والثياب والشعر الكثيف الملتف ، وقيل : هو من الشعر ما
غلظ وقصر ، وقيل : ما كثف واسود ، الذنابي : الذنوب .

(٥) الديوان / ٢٩٢ .

ومثلما بدأ كشاجم قصيدته بالحكم .. فقد ختمها بالحكمة ، " والحكمة في ختام
القصيدة أمر طبيعي كثر وروده في شعر الشعراء وكأن مكانها اللائق يأتي مع نهاية
التجربة لتعطي الدرس وتلخص الرحلة مع الحياة . وتتضمن اتجاه الشاعر في القضية
التي يعالجها" (١)

ب) رثاء جماد

لكشاجم قصيدة حائية تبلغ سبعة عشر بيتا في رثاء قدح له انكسر ، عبر في مطلعها عن
مصائب الزمان التي تتوالى عليه والتي إن احتمل بعضها فلن يحتمل البعض الآخر ، وليست
هناك مصيبة تعادل مصيبته في قدحه : (٢)

عراي الزمان بأحداثه فبعضاً ألفت وبعض فدح
وعندي فجائع للنائبات ولا كفجيعتها بالقدح

(١) د/ علي أبو زيد : بناء القصيدة في شعر الناشئ الأكبر / ١٠٥ . دار المعارف - الثانية - ١٩٩٤م

(٢) الديوان / ٥٨ . عراي : أصابني ، فدح : ثقل وعسر حملة .

ثم شرع كشاجم في بيان مناقب كأسه الراحل فقد كان وسيلته لشراب
 الراح ، كما كان وسيلة تجلب السرور وتبعد الأحزان ، ويبدو أن هذا القدح كان
 زجاجياً ، إذ يشف عما بداخله لا يستره ، ويبوح بسر ما فيه لا يحفظه^(١)
 وعاء المدام وتاج الندام ومربي السرور ومفضي الفرح
 ومعرض راح متى نكسه ويستودع السر منه يبح
 هذا القدح رقيق الجسم كأنه هواء ليس له شبح ، كما أنه يصلح مرآة إذ
 ترسم صورة المرء على جداره ، تخرج منه رائحة الخمر كأنها أخلاط من
 الطيب . خفيف لا يرجح إحدى كفتي ميزان على أختها ، رقيق كالماء يكاد
 يسيل معه من رفته^(٢) .

وجسم هو الماء إن لم يكن يرى كالهواء بكف سنح
 يرد على الشخص تمثاله وإن تتخذة مرآة صلح
 ويعبق من نكهات المدام فتحسب منه عبيراً نفع
 رق فلو حل في كفة ولا شئ في أختها ما رجح
 يكاد على الماء إن مسه لما فيه من شكله ينسفع
 ويوضح كشاجم كيف انكسر قدحه إذ سقط من يد صاحبه الى الارض فلصق بها
 ولم يتحرك ، لقد أفقدته صاحبه قدحاً كان به على الزمان ضنيماً ، وكان الدهر أباي
 إلا أن يسلبه أملاح ما يمتلك^(٣)

هوى من أنامل مجدولة فيا عجايب لطيف زرح
 وأفقدنيه على ضنة به للزمان غريم ملح
 كأن له ناظراً ينتقي فما يعتمد غير الملح
 وبعد أن هوى الكأس هوى معه صاحبنا يقلب أجزاءه المحطمة ، وفي عينه دمع
 يسيل ، وفي قلبه نار تحرق ، حزناً على قدحه الذي ما لبث الدهر أن وهبه إياه ... حتى
 استرد سريعاً هبته^(١)

(١) الديوان / ٥٨ .

(٢) الديوان / ٥٨ . ينسفع : يسيل وينصب .

(٣) الديوان / ٥٨ / ٥٩ . امرأة مجدولة الخلق : حسنته ، زرح : زال من مكانه .

أقلب ما أبقت الحادثاً ت مـه وفي العين دمع يسح
وقد قدح الوجد مني به على القلب من ناره ما قدح
وأعجب من زمن مانح وآخر يسلب تلك المنح
ويبدي كشاجم في ختام هذه المرثية عظيم أسفه وشديد حزنه على قدحه ، فلقد
أدمى الفراق قلبه ، وجرح أحشائه ، فلن يكون لمجالس الشراب طعم بعد رحيله^(٢)
فلا تبعدن فكم من حشاً عليك كلـيم وقلب قـرح
سيفقر بعـدك رسم الغبوق وتوحش منك مغاني الصبح

ولكشاجم قصيدة نونية تبلغ ثمانية أبيات يرثى فيها عوداً انكسر ، وفيها ود
الشاعر لو افتدى العود من حوادث الدهر ومصائبه بأبيه ، ولقد فجعت به صاحبتة
وتحسرت على الأيام الخوالي وقت أن كانت تطرب به ، وتضرب عليه عديداً من
الأنغام الموسيقية التي تطرب الآذان :^(٣)
بأبي أفيك من الحوادث والردى يا عود بل من طارق الحدثان
فجعت به عوداً بئن كأنه صبان مهجوران يشتكيان
هزجا قوام لسانه في أذنه يا من رأى أذنأ قوام لسان

إن من يسمع الأنغام الصادرة عن أوتار هذا العود يخيل إليه أنه يسمع أنغام
عودين يتصايحان ، مع ذلك فقد كان العود خفيف الوزن ، لو وضع في كفة ميزان
ما أمالها ، أضف إلى ذلك أن العود كان دقيق الصنع ، رائع المنظر ، كأنما حلـى
بالدر واللاليء^(٤)
وكان موقع زيـره زيـران وكأنه عودان يصطخبان
ومخفف الأجزاء ليس لجرمه وزن يميل كفة الميزان

(١) الديوان / ٥٩ .

(٢) الديوان / ٥٩ : الغبوق : شرب الخمر مساءً ، الصبح : جمع صبوح وهو الشرب صباحاً .

(٣) الديوان ٢٧٩ الهزج : كل صوت فيه ترنم خفيف مطرب .

(٤) الديوان / ٢٩٧ الزير : من أوتار العود ، يصطخبان : يتصايحان ويتضاربان ، الجرم : الجسد ، جمع أجرام وجروم . الدستان : وتر العود .

وكأن مقبضه جبيرة ساعد قد فصلت بالدر والمرجان
 في صدره من نقبه عينان وبنحره طوق من الدستان
 وفي ختام القصيدة يتوجه الشاعر بالخطاب إلى صاحبة العود مواسياً لها طالبا إليها
 أن يبقى الأوس والفرح وإن هلك العود: (١)
 لا غرو سيدة القيان فأنسنا يبقى ويهلك سيد العيدان

* * * * *

ولكشاجم نونية أخرى تبلغ ستة عشر بيتاً يرثى فيها سكيناً له سرقت ،
 ويبدو أن سارقها أحد كتاب الدواوين ، لذا بدأ كشاجم قصيدته بالدعاء عليهم لما
 يستحلونه من سرق هذه السكاكين ، لقد خادعه أحدهم وسرق منه سكيناً ما كانت
 تحتاج إلى إمهاء حجر ، بل كانت أمضي من السيف الحسام (٢) :

ياقاتل الله كتاب الدواوين ما يستحلون من سرق السكاكين
 لقد دهاني لطيف منهم ختل في ذات حد كحد السيف مسنون
 فابتزنيها ولم أشعر به عبثاً ولست لو سائني ظن بمغبون
 لقد خلا منها موقعها بعد أن كان عامراً بها ، وما فتئ الشاعر يبكي عليها
 ويتذكر مناقبها ، لقد كانت تعينه على ظلم الأيام ، وكانت وسيلته لتقويم الأقلام (٣) :

وأفقرت بعد عمران بموقعها منها دواة فتى بالكتب مفتون
 تبكي على مديّة أودى الزمان بها كانت على جائر الأقلام تعديني
 كانت تقوم أقلامي وتنحتها بريا وتسخطها قفا فترضييني
 فأضحك الطرس والقرطاس عن خلل تنوب للعين عن نور البساتين
 إذا بشرت بها سوداء من صحفى عادت كبعض خدود الخرد العين
 ويواصل كشاجم وصف مقبضها وطولها ولونها وخصرها . ويصور
 الحزن الذي ، يمزق أحشائه حين يذكرها بقوله (١) :

(١) الديوان / ٢٩٧ .

(٢) الديوان ٢٩٨ . الختل : المخادع ، ابتز : سرق وسلب .

(٣) الديوان ٢٩٩/٢٩٨ . تعديني : تنصرتني ، قط القلم : براه وقطعه عرضاً ، النور : الزهر الأبيض .

جزع النصاب لطيفات شعائرها محسنات بأصناف التحاسين
هيفاء مرهفة .. بيضاء مذهبية قال الإله لها سبحانه كوني
محفوظة الوسط تحكي في تخصصها خصر البديع بديع في الحضائين
كأنها حين بشجيني تذكرها في القلب مني وفي الأحشاء تفريني

وفي ختامها يتمنى كشاجم لو فدى سكينه بدينه وديناه ، لكن هيهات أن
يقبل الدهر فداءً ، ويعاهد نفسه ألا ينسى سكينه أو يسلو عنها طول حياته ،
وأنى له هذا وهي التي لا يعوضها سكين آخر : (٢)

ولو يرد فداءً ما فجعت به منها فديناه بالدنيا وبالدين
فلمست عنها بسال ما حييت ولا بواجد عوضاً منها بسكين

ولكشاجم قصيدة تبلغ ستة عشر بيتاً في رثاء منديل سرق منه ، اتهم فيه
فتاةً جميلة ، يقول في أولها (٣) :
من يبك من وجد على هالك فإتما أبكي على دستجه
جاذبنيها رشاً أغيد فجاذب النفس بها محرجه
بديعة في نسجها مثلها يفقد من يحسن أن ينسجه

ويعد كشاجم إلى وصف منديله وكيف تشبه رقة أسلاكه رقة العاشق ،
كما تحدث عن أهديه ، وزركشته ، وحسنه ؛ وكيف يصلح رسولاً بين الأحباب
ينقل الأشواق والتحيات (١) :

(١) الديوان ٢٩٩ . النصاب : مقبض السكين ، تفريني : تمزقني .

(٢) الديوان ٢٩٩ .

(٣) الديوان / ٤٦ ، الرشاً : الغزال ، الأغيد : الطويل العنق .

كأتما رقعة أسلاكها من رقعة العاشق مستخرجه
كأتما مفتول أهدابها أرجل نمل في الثرى ممزجه
كأتما تفويف أعلامها طاووسة تختال أومدرجه
لبيسة جددها حسنها لا رثة الحسن ولا منهجه
كم رقعة من عند معشوقة في الطي من أثنائها مدرجه
ومجة مرشفة عذبة تبرد حر الكبد المنضجه
إلى تحيات لطاف بها تسكن من ذي مهجة مزعجه

ثم عدد كشاجم مآثر منديله وأوجه استخداماته في قوله (٢) :

كانت لمسح الكاس حتى ترى آثرت من كفى أن أخرجيه
وألقى الجام بها كلما كلله المازح أو توجيه
كانت لمحو الكتب حتى ترى آثارها في حسنها مبهجه

هذا المنديل . وللأسف ضنن به الدهر عليه وسرقتة المرأة ورحلت (٣) :
فاستأثر الدهر بها إنه ذو نوب مجلبة موهجه
وأصبحت في كم محتالة ملجمة في هجرنا مسرجه

(١) الديوان / ٤٦ . تفويف الثوب : تخطيطه ، المدرجة : طائر الدراج ، المنهجة : البالية .
(٢) الديوان / ٤٦ - ٤٧ . إناء من فضة يتخذ للشراب .
(٣) الديوان / ٤٧ . موهجة : محرقة ، ملجمة ومسرجة : من اللجام والسرج .

وآخر مراثاه كشاجم مما يعد نادراً بين مراثي الشعراء ، رثاء
كشاجم لأیره ، على نحو ما صنع أبي حكيمه راشد قبله ، قال كشاجم (1)

:

أصبح أيرى للضعف منضما	كأنما فيه نافض الحمى
أصغى وأشفى على الردى وقد	أصم عما أريده أعمى
وكان كالزير في توتره	فانحط حتى حسبته بما
لم يبق فيه حظ تؤمله	سعدى ولا تستلذه سلمى

وقد علق الثعالبي على هذه الأبيات بقوله : " وأراد كشاجم أن يتعاطى
فن أبي حكيمه فما شق غباره على ارتفاع مقداره في الشعر " (2)

(1) الديوان / ٢٧٨ - ٢٧٩ . أشفى : أشرف على النهاية .
(2) ثمار القلوب / ٢٢٧ .

نتائج البحث

هذا ما عده البحث نادرا من مرثي كشاجم (قمري، طاووس، قدح، عود، سكين، مندبل، أير) وهذه هي المعاني التي أسبغها على كل مرثي منها، ويمكننا بعد عرض هذه المرثي رصد النتائج الآتية:

- ١- ليس كشاجم أبا عذرة هذا النوع من الرثاء. فقد سبقه كثير من الشعراء، وليس كشاجم آخر من ارتاد هذا النوع من الرثاء، فقد سار على دربه كثير منهم، وبعض هؤلاء الشعراء رثى نفس الأشياء التي رثاها كشاجم^(١)، وبعضهم رثى أشياء آخر^(٢).
- ٢- أسدى كشاجم لهذه المرثيات خدمة جليلة، حيث سلط عليها العدسة، ولفت إليها النظر، فغدت تعيش في النور بعد أن عانت كثيراً من الظلام، وأصبحت العيون ترنو إليها، بعد أن كانت ترنو عنها، وتتوقف أمامها بعد أن كانت تمر عليها مر السحاب.
- ٣- كان كشاجم دقيقاً في تصوير المرثيات، غلب الصورة على الفكرة، وعرض الموضوع بصورة مركزة مكثفة، وبلغه موحية، بعيداً عن الفحش والابتذال والهزل والسخرية.
- ٤- استفاد كشاجم في مرثيه هذه من إمكانات علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية، وإمكانات علم البديع من طباق وجناس وتصريع وغيرها، وقدم في لوحاته اللون والصوت والحركة، وآثر اللفظ الرشيق، والمعنى الرقيق.
- ٥- تعددت البحور الشعرية التي نظم كشاجم مرثيه عليها، كما تعددت الحروف التي اختارها قافية لمرثيه، ويوضح الجدول التالي بحور وقوافي مرثيه:

الموضوع	البحر	القافية
قمري	الكامل	راء مكسورة
طاووس	المنسرح	ميم مكسورة
قدح	المتقارب	حاء ساكنة
عود	الكامل	نون مكسورة
سكين	البسيط	نون مكسورة
مندبل	السريع	هاء ساكنة
أير	المنسرح	ميم مفتوحة

^(١) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يوسف رثى قمريا، وأبو حكيمة راشد رثى أيره، الخ .
^(٢) ابن المعتز رثى دفاتره وقد أكلتها الأرضة، والسليك بن السلكة رثى فرسه، الخ .

مراجع البحث

- الثعالبي : أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ت ٤٢٩ هـ —
(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تحقيق مفيد قميحة . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٣ م.
(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب . تحقيق أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف ١٩٨٥ م.
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦١٨ هـ —
(٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق إحسان عباس. دار صادر بيروت
- ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ت ٣٢١ هـ —
(٤) جمهرة اللغة . نشر كرنكو . حيدر آباد الأولى . ١٣٤٥ هـ —
شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ —
(٥) سير أعلام النبلاء . تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين . مؤسسة الرسالة د.د.
- الزركلي : خير الدين الزركلي
(٦) الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. دار العلم للملايين . بيروت . السابعة ١٩٨٦ م.
- الزمخشري : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨ هـ —
(٧) أساس البلاغة . دار التنوير العربي . بيروت . الرابعة ١٩٨٤ م .
- ابن سيده : الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل ٤٥٨ هـ —
(٨) المخصص . د.د . ت .
- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ —
(٩) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . تحقيق أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة . الأولى ١٩٦٧ م .
- د/ علي أبو زيد : (١٠) بناء القصيدة في شعر الناشئ الأكبر. دار المعارف — الثانية — ١٩٩٤ م .

ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد ت ١٠٨٩ هـ
(١١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب . دار الكتب العلمية . بيروت د.ت.

كشاجم : محمود بن الحسين ت ٣٦٠ هـ
(١٢) ديوان . تقديم وشرح مجيد طراد . دار صادر بيروت . الأولى . ١٩٩٧ م
ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ
(١٣) لسان العرب . المطبعة الأميرية الأولى . ١٣٠٠ هـ
النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ
(١٤) نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب المصرية . الأولى . ١٩٢٩ م .
ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ت ٦٢٦ هـ
(١٥) معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)
دار الكتب العلمية . بيروت . ١٩٩١ م .
